

الأخلاق الفاضلة



القصص المدرسية

الأخلاق الفاضلة

تأليف

عبد الرحيم الكتاني و عبد الحق الكتاني

نشر: دار الثقافة - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الدار التونسية للنشر

طبع واخراج الدار التونسية للنشر 1976

54 شارع الحرية تونس ـ الهاتف : 873 ـ 285 \ 878 ـ 285

كانَ « أُسامَةُ » رَجُلاً فَقيراً ، لَهُ زَوْجَةٌ وَثَلاثَةُ أَوْلادٍ ، وَكانُوا يَعيشُونَ فِي النَّواحي الصَّحْراوِيَّةِ ، حَيْثُ يَقِلُّ الْعَمَلُ وَأَسْبابُ الْعَيْشِ ، وَحيْثُ لا خِصْبَ وَلا ماءَ ، وَإِنَّما يَعيشُ النَّاسُ مِنْ أَلْبانِ الْمَواشِي وَلُحُومِهـا ، وَيَكْتَسُونَ بِأَوْبارِها (يَعْني : شُعورِها) ، وَيَشْتَغِلُونَ بِرَعْيِها .

وَلَمَّا كانَ « أُسامَةُ » لا يَمْلِكُ أَرْضاً وَلا ماشِيَةً ، فَقَدِ اشْتَغَلَ بِالْقَنْصِ ، فَهُوَ يَخْـرُجُ صَباحاً وَيَجُوبُ (يَطوفُ) النَّواحِيَ الْقَرِيبَةَ أَوِ الْبَعيدَةَ عَلى فَرَسِهِ وَعَلى كَتِفِهِ قَوْسُهُ وَنِبالُهُ فَإِذا رَأَى غَزالاً أَوْ تَيْساً (ذَكَرُ الماعِزِ) أَوْ يَماماً (حَمامُ البَرِّ) قَنَصَهُ ، وَعادَ إِلى أُسْرَتِهِ فَرِحاً بِقوتِ يَوْمِهِ . وَكانَتْ

هذهِ الأسْرَةُ قانِعَةً ، راضِيَةً بِما يَتَيَسَّرُ لَها مِنْ أَسْبابِ الْعَيْشِ .

وَكانَتِ الأُمُّ مِثالَ الْحَزْمِ وَالنَّشاطِ ، تُعْنى بِشُؤُونِ الأَطْفالِ ، وَتَجْعَلُ مِنْ بَيْتِ « أُسامَةَ » الْفَقيرِ ، عُشًّا هادِئاً . لٰكِنَّ « أُسامَةَ » امْتَحَنَهُ الزَّمانُ امْتِحاناً صَعْباً ، وَكَذٰلِكَ طَبيعَةُ الزَّمانِ ، يَمْتَحِنُ الرِّجالَ ، فَيَظْهَرُ مِنْهُمُ الْكَريمُ وَاللَّئيمُ ، وَالْخَبيثُ وَالطَّيِّبُ ، وَالْمُجِدُّ وَالْخامِلُ (الْكَسولُ) ، فَكَيْفَ كانَ امْتِحانُ « أُسامَةَ » ؟

* * *

خَرَجَ « أُسامَةُ » كَعادَتِهِ كُلَّ صَباحٍ بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ زَوْجَتَهُ وَأَطْفالَهُ ، وَانْطَلَقَ يَعْدو بِفَرَسِهِ نَحْوَ الصَّحارى الْمُجاوِرَةِ ، وَأَخَذَ يَطوفُ في مَكانٍ يَكْثُرُ فيهِ النَّخْلُ وَالصَّخْرُ ، ظَنّاً مِنْهُ أَنَّ الصَّيْدَ يَكونُ هُناكَ وافِراً (كَثيراً) .



الرجل يصاب بسهم الصياد

وَبَيْنَما هُوَ يَتَفَحَّصُ تِلْكَ الأَماكِنَ ، إِذا بِغَزالٍ قَدْ أَجْفَلَ ، وَكانَ يَرْعى وَراءَ صَخْرَةٍ عَظيمَةٍ ، وَلَمّا أَحسَّ بِالصَّوْتِ قَفَزَ وَأَسْرَعَ بِالنَّجاةِ ، لكِنَّ سَهْمَ « أُسامَــةَ » كانَ فِي الْقَوْسِ فَأَسْرَعَ بِتَصْوِيبِهِ نَحْوَ الْهَدَفِ ، وَلكِنْ وا أَسَفاهُ ، فَقَدْ أَصابَ ذَلِكَ السَّهْمُ قانِصاً آخَرَ كانَ هُناكَ وَراءَ الْغَزالِ فَسَقَطَ مِنْ فَوْرِهِ قَتيلاً .

لا تَسَلْ عَمّا أَصابَ « أُسامَةَ » مِنْ هَمٍّ . وَبَعْدَ أَنْ فَكَّرَ طَويلاً ، وَقَلَبَ الأَمْرَ على عِدَّةِ وُجوهٍ ، وَبَعْدَ أَنْ فَكَّرَ في الْفِرارِ ثُمّ فَكَّرَ في حَمْلِ الْقَتيلِ إِلى أَهْلِهِ ... بَعْدَ كُلِّ هذا اسْتَقَرَّ رَأْيُهُ على حَمْلِ الْقَتيلِ المِسْكينِ إِلى أَهْلِهِ ، وَالاعْتِرافَ لَهُمْ بِما حَدَثَ ، وَلْيَكُنْ ما يَكُونُ .

حَمَلَ « أُسامَةُ » الْقَتيلَ عَلى فَرَسِهِ وَرَجَعَ بِهِ إِلى قَرْيَتِهِ حَيْثُ أُسْرَتُهُ وَقَبيلَتُهُ .

كانَتْ المُفاجَأَةُ الْكُبْرى هِيَ ذلِكَ الاسْتِقْبالَ الَّذي لَقِيَهُ « أسامَةُ » ، فَقَدْ هجَمَ عَلَيْهِ أَفْرادُ أُسْرَةِ الْقَتيلِ ، يُريدُونَ قَتْلَهُ وَهُمْ في غَيْظٍ (غَضَبٍ) وَحُزْنٍ شَديدَيْنِ ، لَكِنَّ بَعْضَ شُيُوخِهِمْ مَنَعوهُمْ مِنْ ذلِكَ وَأَشاروا عَلَيْهِمْ بِالاحْتِكامِ إِلى شَيْخِ الْقَبيلَةِ ، فَهُوَ سَوْفَ يَكونُ عادِلاً . وَكانَ لِلْقَتيلِ إِخْوَةٌ ، فَأَخذوا مَعَهُمْ « أسامَةَ » وَتَوَجَّهوا إِلى الشَّيْخِ ، وَكانوا مُقْتَنِعينَ بِأَنَّهُ سَوْفَ يَحْكُمُ لِصالِحِهِمْ ، وَسَوْفَ يَقْضي بَيْنَهُمْ بِقَتْلِ « أسامَةَ » جَزاءَ فِعْلَتِهِ !

فَماذا كانَ حُكْمُ الشَّيْخِ ؟

كانَتْ أُسْرَةُ « أسامَةَ » في هذِهِ الأَثْناءِ قَدِ انْتَظَرَتْهُ بِصَبْرٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عادَتِهِ أَنْ يَتَأَخَّرَ ، وَبَقِيَتْ زَوْجَتُهُ مُنْشَغِلَةَ الذِّهْنِ ، فَهِيَ تارَةً تَقُولُ إِنَّ « أسامَةَ » قَدْ سَقَطَ مِنْ فَوْقِ فَرَسِهِ فَماتَ ، وَطَوْراً تَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ لَهُ وَحْشٌ



الصياد بين اخوة القتيل



الزوجة الحزينة تودع زوجها

فَافْتَرَسَهُ ، ومرَّةً أُخْرى تعتَقِدُ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ صَيْداً وَهكَذا ...
وَما عَلِمَتْ بِما حدَثَ لِأُسامَةَ ، وكَيْفَ لَها أَنْ تعْلَم .

سارَ « أُسامَةُ » مَعَ إِخْوَةِ الْقَتيلِ حَتَّى وَصلُوا إِلَى شَيْخ الْقَبيلَةِ ، فَمثُلُوا (وَقَفوا) أَمامَهُ .

قالَ كَبيرُهُمْ : إِنَّ هَذا الرَّجُلَ أَصابَ أَخانا بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ وَنَحْنُ نُطالِبُ بِدَمِهِ (بِالقِصاصِ) .

قالَ الشَّيْخُ لِأُسامَة : هَلْ صَحيحٌ ما أَسْمَعُ ؟

قالَ « أُسامَةُ » وَهُوَ في حُزْنٍ عَظيمٍ : أَمَّا الْقَتْلُ فَصَحيحٌ ، وَأَمَّا الإِصابَةُ فَلَمْ تَكُنْ عَمْداً (قصداً) ، لِأَنَّني رَجُلُ صَيْدٍ ، وَلَمَّا رَأَيْتُ غزالاً شارِداً ، أَطْلَقْتُ سَهْمي فَأَصابَ هَذا الْقَتيلَ ، وَقَدْ حَمَلْتُهُ بِنَفْسي إِلَيْهِمْ ، وَلَوْ كُنْتُ أَنْوي سوءاً ، ما فَعَلْتُ .

قالَ الشَّيْخُ : أَقَدْ حَمَلَهُ ؟

قالوا : نَعَمْ .

قالَ الشَّيْخُ : إِنَّ إِنْصافَ الْقَتيلِ يَتَطَلَّبُ قَتْلَ هَذا الرَّجُلِ ،

فَإِنَّ الْحُكْمَ هُوَ : النَّفسُ بِالنَّفْسِ ، وَلَكِنْ إذا أَرَدْتُمْ مُسامَحَتَهُ فَهُوَ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عامِداً .

فَقالوا : بَلْ نُرِيدُ قَتْلَهُ ، وَالْقِصاصَ مِنْهُ لِكَيْ لا يَضيعَ دَمُ أَخينا .

قالَ الشَّيْخُ : إِنَّكُمْ تُطالِبونَ ، بِحَقٍ هُوَ لَكُمْ .

عَلِمَ « أُسامَةُ » حِينَئِذٍ أَنَّ الْمَوْتَ مُلاقِيهِ ، وَلَكِنَّهُ كانَ يَتَمَنّى شَيْئاً واحِداً ، هُوَ رُؤْيَةُ أَوْلادِهِ وَزَوْجَتِهِ لِآخِرِ مَرَّةٍ ، لِذَلِكَ ، قالَ لِلشَّيْخِ : إذا كانَ لا بُدَّ مِنَ الْقِصاصِ وَالْمَوْتِ ، فَإِنَّني أَرْجو مِنْكُمْ جَميعاً أَنْ تَسْمَحوا لي بِرُؤْيَةِ أَوْلادي وَوَداعِهِمْ .

قالَ الشَّيْخُ : هَلْ نُرْسِلُ فِي طَلَبِهِمْ ؟

— لا يا سَيِّدي ، إِنَّني لا أَوَدُّ أَنْ يَتَفَرَّجُوا عَلى قَتْلِ والِدِهِمْ ، وَلَكِنْ أُرِيدُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَيْهِمْ ، وَسَأَعودُ إِلَيْكُمْ .

قالَ الشَّيْخُ : وَمَنْ يَضْمَنُ لي رُجوعَكَ وَأَنْتَ مُطالَبٌ بِدَمٍ ؟ هَلْ تَعْرِفُ كَفيلاً يَكْفُلُكَ (يَضْمَنُكَ) ؟

سادَ الصَّمْتُ حِيناً ، كانَ النَّاسُ بَيْنَ مُشْفِقٍ (عاطفٍ) على « أُسامَةَ » وَحاقِدٍ (غَاضِبٍ) عليْهِ ، ولَمْ يَكُنْ « أُسامَةُ » يَعْرِفُ هُناكَ أَحداً فتَلفَّتَ يَمْنَةً ويَسْرَةً وَهُوَ حَيْرانُ إِلَى أَنْ رَأى وَجْهاً تَوَسَّمَ (ظَنَّ) فِيهِ الْخَيْرَ فَقالَ : هذا الرَّجُلُ يَكْفُلُني . وَأَشارَ حَيْثُ الرَّجُلُ . فَالْتَفتَ النَّاسُ ... أَمَّا ذَلِكَ الرَّجُلُ فَقَدْ كانَ مُشْفِقاً على « أُسامَة » ، وَلَمْ يَكُنْ يَنْوِي أَنْ يَكْفُلَ « أُسامَةَ » ، وَلكِنْ لَمَّا أَشارَ إِلَيْهِ وَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّاسُ قَبِلَ الْكَفالَةَ بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَ مِنْ بَراءَةِ « أُسامَةَ » وَوَفائِه .

قالَ الرَّجُلُ : أَنا أَكْفُلُهُ إِلى أَنْ يَعودَ .

الْتَفتَ الشَّيْخُ إِلى « أُسامَةَ » وَقال : وَمَتى تَعودُ ؟

قالَ : غَداً صَباحاً .

حِينَئِذٍ قالَ الشَّيْخُ : فَاذْهَبْ وَلْيَبْقَ الْكَفيلُ .

حَثَّ (أَسْرَعَ) « أُسامَةُ » السَّيْرَ الى بَيْتِهِ ، وَكانَ قَلْبُهُ حَزيناً بَاكِياً ، لِأَنَّهُ عَمَّا قَريبٍ سَيُوَدِّعُ أَوْلادَهُ وَيَتْرُكُهُمْ



الصياد يعود مسرعاً على جواده ليفي بوعده

يَتَامى . وَلَمْ تُحدِّثْهُ نَفْسُهُ بِالْفِرارِ وَإِخْلافِ الْوَعدِ ، بَلْ كَانَ يُفكِّرُ فِي الْعوْدَةِ الى الموْتِ .

ولَمّا وَصلَ وجدَ زوْجتَهُ المِسْكينةَ مُستَيقِظةً واللَّيلُ قَدْ أَرْخى ظَلامَهُ على الدُّنيا ، فاستقْبلَتْهُ بِفزَعٍ وَهِيَ لا تَعلَمُ ماذا وَرَاءهُ مِمَّا هُوَ أَكْثَرُ فزَعاً .

ولَمَّا اسْتقرَّ بِهِ الجُلُوسُ ، وهَدأَتْ نفْسُها ، صَارحَها بِالْكارِثةِ (المُصيبَةِ) وَبِما هُوَ مُقبِلٌ علَيْهِ غداً ، وَبِوَعْدِهِ وَنِيَّتِهِ بِالْوفاءِ فَلَمْ تَزِدْ على أَنْ أَخذَتْ تبْكي وَتَنتَحِبُ ، فَتَسيلُ دُمُوعُها غَزيرَةً . لمْ تُفكِّرْ أَنْ تُثْنِيَهُ (تُغيِّرَهُ) عَنْ عزْمِهِ لِأَنَّها كانَتْ تَعلَمُ أَنَّ الْوفاءَ صِفَةٌ كَرِيمَةٌ ، وَأَنَّهُ لا فَضْلَ فِي حَياةٍ ذَليلَةٍ وَفِرارٍ مِنَ المَوْتِ ، بَلْ الفَضْلُ فِي الْوَفاءِ ، وَأَنْ يَحْكِيَ النَّاسُ عَنْ وَفاءِ زَوْجِها وَموْتِهِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يَحْكوا عَنْ فِرارِهِ وَجرِيمَتِهِ ، لَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ زَوْجَها بَرِيءٌ وَأَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ قَتْلاً ، وَلكِنْ لا بُدَّ مِنَ الْوَفاءِ .

وَعِنْدَما أَشْرَقَتْ شَمْسُ الْيَوْمِ التَّـالي ، كانَ الشَّيْـخُ قَـدِ اتَّخَذَ مَجْلِسَهُ بَيْنَ رِجالِ الْقَبيلَةِ ، وَالإِخْوَةُ الْمُدَّعُونَ واقِفُونَ ، وَالْكَفيلُ بَيْنَهُمْ ساكِنٌ هادِئٌ . كانَ النَّاسُ يَعْتَقِدونَ أَنَّهُمْ عَمَّا قَليلٍ سَيُشاهِدونَ قَتْلَ هذا الرَّجُلِ الْكَفيلِ ، لِأَنَّ « أُسامَةَ » لَنْ يَعودَ .

وَبَعْدَ قَليلٍ ، بَدا فِي الْأُفُقِ فارِسٌ يَعْدو فَالْتَفَتَ النَّاسُ وَهُمْ فِي دَهْشَةٍ . وَلَمْ تَدُمْ دَهْشَتُهُمْ إِذْ وَصَلَ الْفارِسُ فَإِذا هُوَ « أُسامَةُ » فَتَرَجَّلَ وَتَقَدَّمَ الى الشَّيْخِ وَقالَ : هأَنذا .

تَأَثَّرَ الشَّيْخُ وَقالَ : وَما حَمَلَكَ عَلى الْعَوْدَةِ الى الْمَوْتِ ، وَقَدْ تَرَكْتَ كَفيلاً بَدَلاً مِنْكَ ؟

قالَ « أُسامَةُ » فِي صَوْتٍ حازِمٍ : خِفْتُ أَنْ يُقالَ إِنَّ أَهْلَ الْوَفاءِ ماتُوا .

كانَ الإِخْوَةُ قَدْ تَأَثَّروا لِعَوْدَةِ « أُسامَةَ » وَتَأَكَّدوا مِنْ كَرَمِ خُلُقِهِ وَوَفائِهِ فَعَلِموا أَنَّ فِعْلَتَهُ إِنَّما كانَتْ نَتيجَةَ الْخَطَإِ ،

فَقالُوا : وَنَحْنُ أَيْضاً نَتَنازَلُ عَنْ حَقِّنا لِهَذا الرَّجُلِ الْوَفِيِّ .

فَتَعَجَّبَ الشَّيْخُ وَقالَ : وَما حَمَلَكُمْ على الْعَفْوِ الآنَ ، وَقَدْ كُنْتُمْ تُطالِبونَ أَمْسِ بِالْمَوْتِ ؟

قَالوا : خِفْنا أَنْ يُقالَ : إِنَّ أَهْلَ الْحِلْمِ (التَّسامُح) مَاتُوا .

كانَ الشَّيْخُ يَنْظُرُ إِلَى الْكَفيلِ وَهُوَ رَجُلٌ لا يَعْرِفُ « أُسامَةَ » وَلا الإِخْوَةَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَقْدَمَ عَلى هَذا الْخَطَرِ بِدُونِ سَابِقِ طَلَبٍ ، فَقالَ لَهُ :

ـ وَأَنتَ ما حَمَلَكَ عَلى أَنْ تَكْفُلَ رَجُلاً غَرِيباً عَنْكَ ، وَلَوْ أَنَّهُ فَرَّ لَكُنْتَ قُتِلْتَ مَكَانَهُ ، فَلِماذا خاطَرْتَ بِنَفْسِكَ ؟

فَقالَ : خَشيتُ أَنْ يُقالَ إِنَّ أَهْلَ الْمُرُوءَةِ (الفَضْلِ) ماتُوا .

حِينَئِذٍ صَفَّقَ النَّاسُ إِعْجاباً بِهَؤُلاءِ الَّذينَ أَظْهَروا كَرَمَ أَخْلاقِهِمْ ، وَهَنَّأُوا « أُسامَةَ » بِالسَّلامَةِ وَشَكَروا الْكَفيلَ عَلى مُروءَتِهِ ، وَاعْتَرَفُوا لِلإِخْوَةِ بِفَضْلِ الْعَفْوِ .

القصص المدرسية

- الهميان المفقود
- الاخوة الثلاثة
- الأميرة المظلومة
- مغامرات ذكي
- الأميرة في القصر المسحور
- التاجر والعفريت
- الأخلاق الفاضلة
- شرفنطح البليد
- الفرحة الكبرى
- عجائب السندباد
- الكيس العجيب
- الحطاب الطموح
- الرّبوة السّعيدة

نشر : دار الثقافة - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الدار التونسية للنشر